المناهج التعليمية بين "صِدام الحضارات" و"العولمة وتحالف الحضارات".
Teaching methods between " clash of civilizations ", " globalization and alliance of civilizations

أ. نور الدين منوني
قسم اللغة العربية وآدابها –كلية الآداب واللغات
جامعة "عمار ثليجي" الأغواط –الجزائر–
البريد الإلكتروني: manouninourredine@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/28	تاريخ القبول: 2019/06/13	تاريخ النشر: 2019/07/15

مُلخّص البحث

يتعرّض المقال إلى مناهج التدريس من منظوري تصادم الحضارات للكاتب "هنتنقتن" وتحالف الحضارات والعولمة للمجتمع الدولي. يراهن "هنتهقتن" على مواجهة سببها تناقض بين حضارتين، عربية إسلامية وغربية مسيحية، ويراهن المجتمع الدولي على تعايش سلمي واحترام متبادل لخصوصيات كلّ ثقافة، بوضع معالم تحدّد زوايا تدخّل العولمة دون إخضاع الآداب لنمط موحّد غربي يُقصي آداب وثقافات بلدان العالم الثالث إلى الأبد. فبعد تحديد مفهوم العولمة وأثرها في التربية والتعليم ورؤيتها للأدب من زاوية التأثير على الهوية، ودعوة بعض أدبائنا إلى الانسلاخ الثقافي، أشرنا إلى تحديد إجراءات توافقية تخصّ إعداد البرامج التربوية والتعليمية بالحفاظ على الخصوصيات في ظلّ التحدّيات المعاصرة وتجديد مناهج التعليم، وأثر المدارس الأدبية الحديثة والأدب المقارن والثقافة الوطنية، من أجل تجسيد أخلاق عالمية موحّدة، بالرجوع إلى تاريخها عند مختلف الشعوب، للوقوف على الثابت والمتغيّر، مع مراعاة محدّدات عناصر المناهج التعليمية المعاصرة كإستراتيجية التعليم والوسائل التعليمية الحديثة، لنصل إلى إمكانية خوض غمار العولمة، مع الحفاظ على هويّتنا.

الكلمات المفتاحية: مناهج، أدب، صدام، حضارات، عولمة.

Summary:
The article discusses teaching methods in the vision of "Hantengthen" "The Shock of Civilizations" and "Globalization and Alliance of Civilizations". Hantengthen bets on confrontation, given the contradiction between the Arab-Muslim culture and the other Western Christian. While the international community is betting on peaceful coexistence and mutual respect by setting principles of globalization in the absence of a Western model of unique literature that would discard the cultures of third world countries. It was necessary to define the concept of Globalization, its impact on education, literature. As obstacles, we have the denial of our culture by

some of our writers. There is the impact of modern literary schools, comparative literature and national culture, in order to determine consensual measures for the elaboration of educational programs in the light of current challenges and to embody a universal ethic in accordance with the history of different peoples to distinguish the coherent from the evolutionary. The educational strategy and modern teaching methods must be taken into consideration in order to minimize the risks of approaching Globalization and the preservation of our identity.
Keywords : curriculum, literature, clash, civilizations, globalization.

تمهيد:

إنّ متابعة التطور لا تعني خروج المناهج عن الدين، والعادات والتقاليد الحميدة، والأبعاد الوطنية أو ضرب بالقديم عرض الحائط، وإنّما نستند إلى القديم ونبني عليه في فهم الواقع الحالي ومواكبته لمستجدات العصر. ويُحسب هذا من تقارب الحضارات ومواكبة المسيرة السريعة لتطوير المناهج التعليمية، إلاّ أنّ هذا التقارب يعاني من عدّة عراقيل، أبرزها المخاوف المتبادلة بين الحضارات. وهذا انشغال عامّ، يسود دول المعمورة، ونظراً لذلك، فإنّ المجتمع الدولي، ممثّلاً في منظمّة الأمم المتّحدة، قد تفطّن لهذا الأمر، وقرّر التكفّل به منذ زمان، وجاءت سنة 2006م، حيث تضمّنت إحدى الوثائق الدولية للأمم المتّحدة القول: «فإنّنا ندرك بأنّ الخوف والشكّ والجهل المتبادل بين الثقافات قد انتشر كثيراً إلى ما بعد مستوى القيادة السياسية، حتى أن التصور بوجود اختلافات أساسية متنافرة بين الثقافات والديانات بات يظهر بانتظام كتفسير لمجموعة من النزاعات السياسية والثقافية ويجب تناول هذه الظاهرة المزعجة بشكل عملي».[1]

أوّلاً: مفهوم العولمة

تسارعت الأبحاث في ميدان العلوم والتكنولوجيا بشكل رهيب في الولايات المتّحدة الأمريكية وحليفاتها من الدول الغربية، خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي ومطلع القرن الحالي إلى غاية هذا اليوم، وطالت كلّ الميادين الحيوية وبخاصّة ميدان المعلوماتية ووسائل ونظم الإعلام والاتصال، واتّخذت الولايات المتّحدة، وهي أقوى هذه الدول، من هذا التقدّم وسيلة لإحكام سيطرتها على العالم، فكان لها ذلك، وهي اليوم من يقود العالم، وهي تحتكر تجارة السلاح وتتحكم ببقع التوتر في أنحاء العالم، وهي المفجّر لهذه التوتّرات، وتسيطر على ثروات

النفط والقمح، كدعائم أساسية للتطور والتنمية ووسيلة من وسائل إخضاع الشعوب. كما أنّ أمريكة محتكرة للشرعية الدولية وتضع يدها على مجلس الأمن الدولي لتمرير مصالحها ومصالح الدول المهيمنة، وهي التي تسيطر على الإعلام العالمي ممّا يتيح لها صناعة الرأي العام الداخلي والعالمي وتوجيه عقول شعوب العالم.

في حينِ غفل أغلب أفراد المجتمعات العربية الإسلامية عن المخطّطات العالمية لاحتواء الشعوب، وإرغامهم على الخضوع لبرامج محدّدة تعيد بناء فكرهم وتصنع سلوكهم بكيفية تخدم مصلحة الآخر وعلى حساب المصلحة الداخلية، يعكف الواعون من بني الأمّة على مسايرة هذه المخطّطات بالدراسة والفحص والانتقاء، وبتكييف لهذه البرامج، أو بالأحرى المناهج، بما يناسب مصالحها المتوافقة مع العصر.

تدخل هذه المخطّطات التي تُعْقَدُ لها المؤتمرات وتُؤلّف لها الكتب، في إطار "العولمة" التي لا بدّ من رسم تصوّر لها من خلال هذا البحث، ولو بصفة مقتضبة، نظراً لكثرة المواضيع والعناوين التي تنضوي تحت هذا المسمّى "العولمة"، على أنّ أهمّ عنوان يسعى إليه البحث، هو العولمة *وانعكاساتها على المناهج الأدبية التعليمية*. ويأتي ذكر العولمة في هذا المجال، نظراً لتأثيراتها على التربية ونُظُمِها، ذات الأهمّية القصوى في حياة الأفراد والمجتمعات، ممّا جعلها هدفاً من الأهداف الكبرى للعولمة، فأصبحت العولمة، في هذا المضمار، ترفع تحدّيات عدّة موضوعها الفرد والمجتمع، منها بناء الإنسان وتوجيه توظيف طاقاته، وبناء الاعتماد على الذات، وتكامل وتوحيد المجتمع وترقية الحوار الفاعل مع الآخر. فكل ما يصيب التربية من متغيرات إذن، لا بدّ أن يطال مناهج التعليم التي تؤدّي الدور الرئيس في مواجهة تحديات العولمة.

مع مطلع تسعينات القرن الماضي ظهرت إلى الوجود هذه المفاهيم والمصطلحات الجديدة، وانتشرت لتكتسح كلّ أرجاء الأرض وفي كلّ المجالات، ومن أهمّ هذه المفاهيم مفهوم العولمة، والنظام العالمي الجديد، واندثار الثنائية القطبية، والعالم الذي أصبح قرية، أو سطح مكتب، وصراع الحضارات، وتحالف الحضارات، وما لا يزال ينتظر العالم من مفاهيم بين الحين والآخر... وقد يعود السبب في ذلك إلى الثورة العلمية والتكنولوجية والصناعية المعاصرة، التي مهّدت لها ثورات سبقتها منذ القرن السابع عشر، كان من أهمّ نتائجها المفاهيم الحديثة والمناهج التي غيّرت أنماط السلوك عند الأفراد والمجتمعات على حدّ سواء: «كما ساهمت في بروز المفاهيم

والقناعات والمناهج والأفكار الحياتية والسلوكية الحديثة التي أخذت تنتشر انطلاقاً من أوروبا إلى سائر أرجاء المعمورة».[2]

1- العولمة من المنظور التعليمي التربوي

لم تسلم ميادين التعليم والتربية من عين إعصار العولمة حيث أنّها، في نظر العولمة، عامل من العوامل التي يمكن من خلالها تحقيق بعض الأهداف ذات الصلة بتطوير السوق والاقتصاد، فلا بدّ من إعادة النظر في المناهج المتّبعة في تنظيم التربية والتعليم بكلّ الأقطار، وقد تكون الدوافع غير اقتصادية ولا علاقة لها بالسوق، إلاّ أنّ ما جاء في بعض التحاليل يقول عكس ذلك: «تُفرَض على كلّ اقتصاد يصنع فرصاً وظيفية حيث أصبح الدخول إلى السوق العالمي مرهوناً بنظم التربية والتعليم، في التعليم العام والجامعة التي تقع في قلب أي تطوير اقتصادي منشود».[3] وبهذا يصبح للعولمة اليد الطولى على المناهج التربوية والتعليمية، والمواد المدرجة في التعليم، وليكن الأدب المادّة المفضّلة في هذه العملية نظراً لعلاقته بالهوية والتراث والثقافة وهي ميادين التأثير على صناعة الأيديولوجية والفكر، ومن هنا تؤتى الأمم.

لا بدّ من استكشاف للعلاقات بين الأدب والثقافة والعولمة، والتساؤل حول أشكال وآثار العولمة على المنظومة الأدبية والثقافية وطرق التعليم، وهل أصبح الأدب والثقافة وسيلتين للتغيير في يد العولمة، وما هو مستقبل المناهج الأدبية التعليمية.

2- علاقة الأدب والثقافة بالعولمة

إلى عهد ليس ببعيد، عُدّ الأدب ميداناً بعيداً عن أمر العولمة، ولقد اعتُبر الأدب، منذ أقدم العهود، شأناً داخلياً، وهو إلى بداية الألفية الحالية، في نظر الغالبية العظمى للقرّاء والكتاب، ليس معنياً بترتيبات العولمة بخلاف العديد من الميادين الأخرى كالعلوم والتكنولوجيا والاقتصاد وغيرها، كونه جزءاً من ثقافة المجتمع المتواصلة عبر تاريخيه، المميّزة له عن الآخر، والمختلفة اختلافاً جوهرياً عن ثقافات غيره من المجتمعات، ويصبح التفريط في هذه الرؤية مكلّفاً بالنسبة لسلامة وحدة المجتمع: «حاجة إنسانية وضرورة لتحقيق تماسك المجتمع واتصاله وتفاعله، عن طريق تبنّي أفراد هذا المجتمع مثاليات ومعايير وقيم وإبداعات مختلفة ومتجانسة».[4] والعولمة، إن حاولت بسط يدها إلى مسألة الأدب، فإنّها بذلك تسعى إلى إحداث تغيير في فكر الانتماء وهذا شأن يبدو بعيد المنال، لأنّه كما يقال: «الناس قد نشأوا وتمّ تدريبهم على التفكير بأن الأدب شأن قومي

ويبدو ذلك جلياً في الرواية التقليدية التي ترتبط بحسّ راسخ في الانتماء إلى هوية قومية محدّدة السمات: فهل حصل مثلاً أن سمع أحدكم برواية يمكن وصفها برواية الاتحاد الأوروبي أو الغرب الأوسط الأمريكي؟ وهذا بالضبط هو ما يميّز الرواية عن الأشكال الثقافية الأخرى، فهي تعدّ بشكل ما حاضنة للطموحات القومية إلى حدّ أن ذهب البعض إلى اعتبار أنّ العولمة الأدبية فكرة مضادة للتقاليد القومية الراسخة والمعظّمة».[5]

3- رؤية العولمة للأدب

وتتجلّى العولمة، حسب بعض الرؤى الأدبية، في تحرّكات لا تخلو من التناقضات، بسبب الخطاب المزدوج الذي يصدر عن الكثير من الناطقين المقرّبين في الدوائر المتحكّمة في مسيرة العولمة في شقّها التربوي التعليمي، من خلال مساعي جريئة، لا تعبأ بثقافات غيرها، ولا حتى بحقّ الوجود لأصحابها إذا كانوا ضعفاء. فلا مكان للضعيف في عالم العولمة؛ قال الشاعر:[6]

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

4- عولمة الأدب والهوية

هنالك مقولة هندية مفادها: «أريد أن تهبّ ثقافات كلّ الأراضي بمحاذاة منزلي وبكلّ حرّية.. لكنني أرفض أن أتحوّل بأيّ واحد منها».[7] وتستثمر هذه الحكمة الصادرة عن "غاندي" في إرشاد العقول المثقّفة، الحاملة للآداب إلى التعايش سلمياً. هذه هي القواعد السليمة التي اجتمعت عليها ألباب الحكماء، قال تعالى على لسان موسى: «قال فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس»،[8] ولا دخل لأحد في شؤون الآخر، إلاّ ضمن الحدود التي تفصل الحريات.

ثانياً: صدام الحضارات وتحالف الحضارات

إنّ الصراع بين الأمم، كما يقول الدكتور صلاح قنصوه على لسان صاحب كتاب "صدام الحضارات" في تقديمه لهذا الكتاب: «فالصراع في العالم الجديد لن يكون إيديولوجياً أو اقتصادياً، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر، والمصدر الغالب للصراع ثقافياً».[9] وإنّ التفاؤل في ظلّ هذه النوايا ليس مضموناً. وإنّ كثيراً من الأسباب التي تقف وراء هذه الرؤى المظلمة والتنافر والتناحر تدفع بالضعيف إلى تفادي صدام لا طاقة له به. وما يؤكّد ذلك، تنبؤ بعض المفكرين بأن العولمة سوف تفضي إلى النتائج المتلاحقة ذات التأثير على قطاعات حيوية لن يسلم منها حتى الأدب المحلّي كالتالي:[10]

- وضع طوق على الإنتاج القومي الاقتصادي وكنتيجة للمنافسة غير المتكافئة مما يؤدي إلى المزيد من البطالة .
- تهميش الثقافة الوطنية واللغة القومية لصالح ثقافة القطب الاقتصادي والمتلك أيضاً لوسائل الاتصال والتواصل فارضاً لغته وطريقته.
- –تقليص العلاقة الحميمة بين المثقف وبين الخبرة المباشرة بالعمل وبالحياة من حوله، وتطويق الإبداع الأدبي والفني لدى الشعوب.

إذا كانت هذه اعتقادات وهمية، فإنّ الله قد كفى المؤمنين القتال. وإن كان الأمر اعتقاداً صائباً مؤسّساً، فهل من سبيل لتفادي الصدام وتحويل الصراع الثقافي إلى تكامل بين الثقافات؟ ولنلتفت الآن إلى بعض أسباب هذا الصراع.

1– الاعتقادات الخاطئة والآراء المسبقة

إنّ الاعتقادات الخاطئة المتبادلة حول الثقافات المختلفة للأمم والآراء المسبقة، سبباً أساسياً لصدام "حتمي" للثقافات، وهذه حتمية حبيسة نظرة صاحب كتاب "صدام الحضارات" ومن الوثائق الأممية ما يفنّد ذلك. والصدام ليس قدراً ربّانياً لا يُفضي إلى تفهّمات. والآراء المفنّدة لصدام الحضارات مطروحة من قِبَل القوى المهيمنة في العالم نفسها، وهي أفكار مجرّبة، توصّلت بفضلها الدول الغربية إلى الوحدة والتكامل فيما بينها. فلا بدّ من مخرج للبشرية من هذا التمزّق، ومجابهة هذه الحتمية بحتمية معاكسة ومجابهة القدر بالقدر؛ قيل لعمر بن الخطّاب وهو يرفض دخول مدينة تفشّى فيها الطاعون: «أتهرب من قدر الله يا أمير المؤمنين؟» قال: «إنّي أهرب من قدر الله إلى قدر الله».[11]

2– الهوية بين التطرّف والوسطية

يعدّ الصراع بين الثقافات، في الأدب بوجه خاصّ، صراعاً حول الهوية والخصوصية. وما من مجتمع بشري إلاّ ويسعى إلى الحفاظ على ما يميّزه عن غيره، والأمر بيد أدباء كلّ أمّة في التأثير في الأذهان لتغيير مسار الصراع من الصدام إلى التحالف. وكلّ الآراء قابلة للنقاش إذا توفّرت النيّة يمَكِّن كلّ طرف من إبداء رأيه وتبريره، وتحدث تفاهمات تفضي إلى الحيلولة دون تحوّل الخلافات الثقافية القديمة والحالية إلى صراعات عنيفة تقوم على الهوية، تؤدّي إلى انقسامات وإقصاء وإلغاء الآخر، عوضاً عن التكامل والتعايش السلمي بين الشعوب. فلا بدّ من التفكير في إزالة الآراء

المسبقة من أذهان فريقي الشقاق، كما يرى ذلك الفريق الأممي الرفيع المستوى[12]: «والهوّة القائمة بين الأقوياء والضعفاء، والأغنياء والفقراء، أو بين مجموعات سياسية وطبقات ومهن وقوميات مختلفة لها قوّة إيضاح أكثر من تلك الفئات الثقافية. والحقيقة أنّ الصور النمطية الأخيرة لا تؤدّي إلاّ إلى تعميق الآراء المستقطبة بالفعل. والأسوأ من ذلك إنّه بترويج الرأي الخاطئ عن أنّ الثقافات تتّجه نحو تصادم لا يمكن تفاديه، من شأنه أن يساعد على تحويل المنازعات القابلة للتفاوض إلى صراعات معقّدة قائمة على الهوية تستحوذ على الخيال الشعبي. لذلك من الضروري مواجهة الصور النمطية والتصوّرات الخاطئة التي تقوّي أنماط العداء وعدم الثقة بين المجتمعات».[13] ويعدّ هذا توجيهاً عالمياً رسمياً صادراً عن هيئة أممية، موثّقة تحت عنوان"تحالف الحضارات"، يُستوحى منه الضمان الغائب عن كثير من الأذهان لإعادة الثقة المفقودة بسبب الصدى المعاكس المنبعث من فكرة الحتمية و"تصادم الحضارات"، فلا بدّ لنا، في ثقافتنا العربية وأدبنا العربي، أن نجنح للسَّلم الذي لا يعني الخنوع، بالانصياع للصيحات المتفائلة، لترجمة تلك الرغبات الأممية إلى واقع أدبي، نحفظ به هويتنا محلّياً ونتكامل به مع المستوى الخارجي.

تنظر العولمة إلى التعدّد الثقافي على أنّه تراث مشترك للإنسانية كلّها، يتوجّب على كلّ إنسان أن يخصّ ثقافة غيره بالاحترام، وهذا ضمان لودّ أصحابها وبعث الاحترام المتبادل الضامن للتعايش السلمي بين المجتمعات. وإنّ التمسّك بالهوية والثقافة هو بدافع الخوف من العولمة في استئصال وطمس الوجود والذوبان داخل ثقافة وحيدة وأدب وحيد يقوم مقام كلّ الآداب والثقافات، حتى إنّ الدوائر الأممية لتعترف بصعوبة التصوّر والهضم للوهلة الأولى لمرامي العولمة: «عولمة العالم " شكل تحدياً لهوية الجماعات في كثير من أجزاء العالم بما في ذلك أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا».[14] وهنا يتدخّل الفريق الرفيع المستوى مطمئناً بالقول: «الهويات الثقافية المتنوعة تشكل جزءًا لا يتجزأ من ثراء التجربة الإنسانية، ومن ثم ينبغي احترامها وتشجيعها».[15]

3- سقطات الأدباء

نلاحظ الانسياق جرياً وراء الأدب العالمي وهجران الساحة الأدبية العربية لكثير من الأدباء، ظنّاً منهم أنّ ذلك طريق صحيح وأنسب لإحداث تغيير يخرج الأمّة من براثن "التخلّف"، وفي ذلك إشارة منهم إلى تخلّف المجتمعات العربية بسبب أدبها البالي الذي "تجاوزه الزمن". ومن دون أن نتعرّض إلى تفاصيل لظاهرة الانحراف الخطير لبعض أدبائنا العرب من أمثال "أدونيس"، فقد

سُجّل على البعض الآخر سلوك سلبي لم يبلغ حدّ التطرّف، ذلك أنّ هؤلاء تحوّلوا عن خدمة أدبهم القومي إلى الانبهار بالآداب العالمية، فأهملوا رسالتهم تُجاه أوطانهم وثقافتهم وانشغلوا بالأدب الخارجي. يُشار إلى ذلك من خلال ما لاحظه الأستاذ "واسيني لعرج" أحد أقطاب الأدب الجزائري، والمعروف بانفتاحه على الثقافات الغربية، حين أدلى بحديث لوكالة الأنباء الجزائرية، على هامش انطلاق افتتاح أشغال الملتقى الدولي حول "الحقول الأدبية واستراتيجيات الأدباء" عن عولمة الأدب أنّها «تنطوي على سلبيات منها انشغال الأدباء بالاهتمامات العالمية والغفلة عن الانشغالات المحلّية والجهوية للأدب، وأن "العولمة الأدبية" أدّت إلى بروز "نصوص ضعيفة وبنيات هشة وفي بعض الأحوال دون جهد أدبي يستجيب لمتطلبات محدّدة" مضيفاً أنّها "أفرزت أيضا بعض الظواهر مثل الهوس الأدبي المتجلي في الكتابة من أجل استمالة الآخر وترديد خطاباته بأساليب أدبية وفنية».[16]

ما أعظم العولمة بالمنطق الهندي الحكيم "للمهاتما غاندي" في مقولة له: «أريد أن تهبّ ثقافات كلّ الأراضي بمحاذاة منزلي وبكلّ حرّية..لكنّي أرفض أن أتحوّل بأيّ منها».[17] كما جاء في الحديث الشريف القول: «الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها».[18] فلنعلّم أبناءنا التعايش السلمي، مع الحفاظ على الهوية وثقافة، ولندرّس الأدب الخاصّ بالأمّة وهويتها، بلغة الأمّة، دون التفريط في اللغات الأخرى ولا إفراط، ولنلقّنهم الآداب المحيطة والخارجية، ذلك ما يمكن استخلاصه من حكمة "غاندي".

ثالثاً: التربية والتعليم والتوافق المنشود

تتحدّث الوثيقة الأممية (تحالف الحضارات) عن تناول ظاهرة التوتّرات في العالم بـ"*شكل عملي*"، تلك الظاهرة التي وصفتها ذات الوثيقة بالمزعجة، حيث يأخذ هذا الشكل العملي عدّة مجالات في الحسبان، على رأسها التعليم. وينتهي العلاج بتذليل العقبات بين الثقافات، ويحظى التعليم بالأولوية في معالجة عدّة قضايا تطرحها العولمة، في التقريب بين شعوب الثقافات المختلفة، والمعوّل عليه كبير في إزالة العقبات، وهذه خطوة محسوبة في المواثيق الدولية، حيث جاء في الوثيقة نفسها القول: «ويمكن للتعليم والشباب ووسائط الإعلام وسياسات الهجرة على وجه الخصوص أن تقوم بدور في المساعدة على تقليل التوترات عبر الثقافات ومدّ الجسور بين المجتمعات. ولذلك فإنّ هدف الجزء الثاني من هذا التقرير هو تقديم نظرة عامة عن تلك المجالات وأن نطرح خطوات

يمكن العمل بها في كل منها، معترفين بالجهود المعمول بها حالياً، ومقترحين طرقاً للتوسع والتقوية والاتصال والبناء على هذه الجهود. ويؤمن أعضاء الفريق الرفيع المستوى بأنه يوجد حالياً اهتمام كبير في المجتمع الدولي بالمدّ المرتفع للنزاعات المميتة ورغبة جماهيرية واسعة للحصول على الأمن والازدهار الإنساني العام. والمطلوب هو تقوية سبل التعبير عنها وتقدمها، وذلك جهد يمكن أن تساهم فيه كل قطاعات المجتمع».[19]

لقد أخذ ألدب بعداً عالمياً في المعالجة، نظراً لعلاقته بالثقافة والهوية. ونحن في أمسّ الحاجة إلى تسليط الضوء على المناهج المتّبعة حالياً في العالم أو التي هي في طور الإعداد، والاضطلاع بأهمّ الانتقادات الموجّهة إليها، سلباً وإيجاباً، وأن نتطرّق إلى العوامل الموضوعية التي دفعت إلى لزوم تطوير المناهج عندنا، ونتحقّق من مكوّناتها ومحتوياتها، خاصّة المحتويات ذات الصلة بالثقافة وخصوصيات المجتمع، في انعكاساتها السلبية المحتملة، كالخروج بتلاميذنا عن السيرة الأصيلة للمجتمع، أو التفريط في الثوابت.

1- مفهوم التجديد في مناهج التعليم العربية

التجديد ظاهرة قديمة عند المسلمين قِدمَ الإسلام، مفهوم عريق وتقليد سار عليه رجال الفقه لأنّه من تعاليم الإسلام الأساسية، كما أشار إلى ذلك سيد الخلق قائلاً: «إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها»،[20] وجاء في قول لأحد المختصّين: «وتجديد الفقه الإسلامي في نظري لا يتعلق بتجديد آحاد الفتاوى استنباطاً وتنزيلاً فقط، **وإنما يتعلق أولاً بتجديد مناهج التفكير والأصول الفلسفية التي يبنى عليها الفقه في واقعنا المعاصر**. فمع تجدد المعرفة الإنسانية ووصول البشرية لآفاق جديدة في فهم طبيعة الزمان والمكان والمادة والأحياء والكون، ومع تأثر المنطق الإنساني نفسه بهذه المعارف الجديدة كان حرياً أن ينعكس هذا المنطق الجديد على التفكير الفقهي، بل نرى أن هذا الانعكاس شرط لقدرة الفقه الإسلامي على مواكبة قضايا العصر ومستجداته».[21] فالفكر الإسلامي إذن لا يرفض تجديد مناهج التربية والتعليم من حيث المبدأ، ولما كانت العولمة بحاجة إلى التوفيق بين الثقافات المختلفة للشعوب في عملية بناء المناهج التعليمية، فإنّنا أمام طواعية المبدأ فيما يتعلّق بمجتمعاتنا العربية الإسلامية التي تعود إلى الإسلام في سنّ قوانينها التربوية والتعليمية، وللمعتقد السلطة الكبرى في صناعة سلوك الأفراد والمجتمعات على جدّ سواء. ولو لم يكن للمعتقد أثرٌ على السلوك لاعتقد الإنسان ما يشاء. إلاّ

أنّ الاختلاف بين معتقدات العولمة ومعتقد المجتمعات الإسلامية قد يقتضي حواراً بين العولمة والمبادئ الخاصّة بمجتمعاتنا.

2- العمل على المحتويات

على ضوء ما سبق، فإنّ المصلحون يعمدون إلى إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم، كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. ونضرب مثالاً بالدعوة إلى الإصلاحات في مناهج التربية التي رفعها بعض الأوروبيين، والفرنسيين خصوصاً، تحسّباً لتفادي عودة التوتّرات بين الدول الأوربية وعودة الحروب إليها. فبعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، قام بعض العاملين في حقل التربية من دعاة السلام، بمعية بعض التيارات المؤيّدة أو القريبة من دوائر الرابطة العالمية للتربية الجديدة (المنشأة سنة 1921)، بمحاولة بعث التفكير حول علم التربية التاريخي، وهو أحد مواد التدريس. ورأى بعض الأعضاء الناشطين بهذه الرابطة، وعلى رأسهم "Roger Cousinet" و" Adolphe Ferrière" أنّه من الضروري المشاركة في حوار يجنّد المجتمع التربوي العالمي من أجل تبنّي تاريخ مدرسي يجنح إلى التصدّي لصناعة العقول الشوفينية والعدوانية[22]، وتكييف تعليم التاريخ بشكل يناسب سنّ المتعلّم ومصلحته، من خلال نصوص تمّ نشرها في مجلّتي " L'école de la vie"[23] ومجلّة "Revue de synthèse"،[24] وكان ذلك في مطلع القرن العشرين.

أدّت هذه الدعوة إلى إحداث شرخ بين المؤرّخين ورجال التربية، ممّا استدعى تكفّل هذه المجموعة، بالإضافة إلى عدّة جمعيات ونقابات داعية إلى الفكرة نفسها، بفكّ النزاع بين رجال التربية وكتّاب التاريخ، والتشهير برتابة وعقم المنظومة التربوية وتصلّب التعليم التاريخي. وعلى الرغم من شدّة الخصومة بين الفريقين، فإنّ نشاطات التلاميذ سارت على النهج الذي رسمته الأوساط الإصلاحية لمؤسّسات التربية آنذاك[25].

يتبيّن من خلال ما ذكرنا أنّ موادّ التدريس، من حيث المحتوى، كفيلة بمفردها بأن تؤدّي دوراً محورياً في صناعة التوافق بين المجتمعات، وهي قادر على التحكّم في عقول الأجيال، وخلق عقول متنوّعة، تتراوح بين العدوانية، والدعوة إلى السلام ووحدة الأمم والتوافق حول مناهج خالية من كلّ ما من شأنه تعكير الجوّ المنشود في العالم. ونريد أن نستفيد من التربية والتعليم في تذليل العقبات بيننا وبين العولمة، وبالنسبة لنا، ليست مادّة التاريخ التي تصنع الحدث كما حدث في أوربّا، لأنّ للتاريخ حرّاسه والقائمين عليه، لكن مادّة الأدب، كما سبق وأن أشرنا إلى أهمّيتها فيما

سبق. وليكن هدفنا متابعة التطوّر الذي يراعي خصوصياتنا، ويتفادى تدريس قيم وعادات وتقاليد منافية لعاداتنا وتقاليدنا الحميدة والبعد الوطني، ولا نتنكّر، عبر هذا التطوّر للقديم الذي نتخذه أساساً في فهم الحاضر ومواكبة مستجدّات العصر، نجعل ذلك من أهداف العملية التعلّمية\التعليمية في الأدب.

3- التعليم والتحدّيات الجديدة للمناهج

رابعاً: مفهوم المنهج.

إذا كان مفهوم المنهج التعليمي هو حوصلة الخبرات الثقافية والاجتماعية والرياضية والدينية والفنّية والبيئية التي تقوم المدرسة بإنشاء النشء عليها بالتلقين والتدريب، من أجل تنميتهم وصناعة سلوكهم، استجابة للمعارف المتزايدة، فإنّ ذلك كلّه يفرض على المجتمع إعادة النظر في رسم أهدافه بالتوازي مع تطوّر المحيط الإقليمي والدولي بحركته السريعة. والمنهج كذلك هو مجموع النشاطات المبرمجة من قِبَلِ المؤسّسة التعليمية لإكساب المتعلّم الكفاءات المختلفة، كما أنّه المحتويات التعليمية وطرائق التدريس، ومجموع الوسائل المستعملة إلى جانب طرق التقويم الديناميكية التي يتمّ بواسطتها التحقّق من بلوغ الأهداف واكتساب الكفاءات من قِبَل التلميذ. ونتيجة لذلك، فهو خلق الفرد المعاصر القادر على فهم كلّ ما يجري حوله، بالداخل والخارج، وإيجاد حلّ لكلّ طارئ في مجتمعه... «هو مجموع العمليات المخطّطة من أجل تحديد الأهداف والمضامين والطرائق واستراتيجيات التعليم وتقييمه والوسائل المتعدّدة من أجل إنجازه وتطبيقه».[26] وهذا تعريف شامل كامل للمنهج جمع مجموعة من التعريفات، يمكن من خلاله تحديد المكوّنات الأساسية للمنهج التعليمي والمناسب لما نحن عليه اليوم، يضمن التعامل الجيد في ظلّ عولمة لا ترحم ولا تنتظر.

1- المنهاج عند اليونان

يعتقد اليونان بأنّ النشء تلزمه تربية غير التربية التي نشأ عليها الآباء والأسلاف، وأن الأزمنة هي التي تملي نوع التربية التي تصلح لكلّ جيل، وأنّ على الآباء الاستعداد لرسم منهاج يخصّ الجيل الذي يأتي بعدهم، وعلى هذا الأخير أن يرسم للذي يليه، وهكذا دواليك. وفي هذا يقول سقراط: «لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».[27] ونُسب هذا القول كذلك، لأفلاطون، وإن كان هذا الكلام لا يمكن أخذه بهذا الإطلاق. ولقد دأب اليونان

على إعداد النشء طبقاً للفلسفة السائدة عندهم، ووضع المناهج التربية متأثّرين بها، ولم تؤخذ في الحسبان طبيعة الطفل، لأنّها « تغاير طبيعة الطفل، وتؤكّد أهميّة العلوم والفنون، وما على الطفل سوى تعلّمها — ولو باستخدام الشدّة – بغض النظر عن درجة صعوبتها أو مدى ملاءمتها لميول الطفل واهتماماته؛ لأنّ هذه العلوم والفنون تستحقّ أن تعلّم لذاتها ؛ ولأنّها الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف التربويّة الساعية إلى الوصول بالطفل إلى إدراك الحقيقة المطلقة أو تغذية عقله، أو السمو بنفسه»،[28] ونفهم من ذلك بأنّ اليونان، الذين حصروا محتوى المنهاج عندهم في (النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى)، قد جعلوا أبناءهم يتجرّعون محتويات المناهج تجرّعاً كما أنّها لو كانت دواءً تستريح عقولهم به، ويتحقّق به التوازن بالنسبة للأفراد والمجتمع. وهذه القسوة في التربية تنطلق من المبدأ السائد عند اليونان آنذاك: «يجب على الطفل أن ينتمي إلى الدولة، لا إلى العائلة، وكان هذا مبدءا مشتركاً بين جمهوريات ما قبل التاريخ».[29]

2– المنهاج في القرآن والسنّة

من الأخلاق والآداب ما لا علاقة له بالزمان والمكان، كالبِرّ، والأمانة، والصدق، والابتعاد عن المعاصي وإتيان الطاعة، فإنّ هنالك مواطن يصحّ فيها هذا القول، ويُستفاد منه في مراعاة الأمور لم يرد فيها نصّ شرعي من مثل الأخلاق، والعادات، والسلوك، وتلكم هي الأشياء التي تختلف باختلاف المكان والزمان. وحتى الإسلام لم يلغ كلّ العادات والأعراف التي وجدها، ورُوي عن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّما بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»،[30] ذلك أنّ أخلاق المجتمع الجاهلي لم تكن سيّئة في مجموعها وأنّ للمجتمع العربي فضائله قبل الإسلام.

كما روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمع في النخل صوتا، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: «يؤبرون النخل»، قال: «لو تركوها لصلحت»، فتركوها فصارت شيصاً، فأخبروه، فقال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم، وأما أمر آخرتكم فإلي».[31] ونزولاً عند هذا الهدي، ينبغي أن نراعي التغيرات التي تطرأ على الأعراف والعادات والسلوك، تحت وطأة الإفرازات العلمية والتكنولوجية وما تفرضه من تغيير، فلا نحمّل الأجيال الناشئة في هذا العصر على عادات وأعراف ولّى زمانها. لم يَخْلُ القرآن من كلمة "المنهاج"، ولم يتأخّر الهديُ القرآني من الإشارة إلى المناهج، ولا من رسم المنهاج الشرعي لمريديه، وتأتي الآية الكريمة بالإشارة: «لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً».[32] وعن أبي بن كعب قال: «عليكم بالسبيل والسنة...فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن

يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم».[33] ويقول ابن عباس: «شرعة ومنهاجا، قال: سبيلا وسنة، ويعني هذا القول أنّ المنهاج هو السنة، وهو الطريق الواسعة المسلوكة، المداوم عليها.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: «شرعة ومنهاجاً، "الشرعة": السنّة و"منهاجاً" السبيل».[34] وقال أبو إسحاق في قوله : «"شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً" الشِّرعة في الدين، والمنهاجُ: الطَّريق»[35]

تعدّدت تعريفات المنهج، ما بين القواميس والمختصّين، منها البسيطة التي لا تحمل تفاصيل، ومنها الأكثر حيازة على المكوّنات والتفاصيل، وجاءت على صيغة "مناهج التعليم"، "استراتيجيات التعليم"، و"وسائل التعليم". ويجب أن نميّز، بينها تمييزاً فاصلاً، بين هذه التعبيرات الثلاث لتفادي الخلط بين المفاهيم واستعمال إحداها حيث يجب أن تُستعمل الأخرى، وما يجب أن نلاحظه في كلّ هذه العبارات، أنّه يُشار إلى المعلّم قبل كلّ شيء، وهو يقوم بعمل التعليم، ولا يُشار إلى المتعلّم وهو يقوم بعمل التعلُّم.

3- منهاج التعليم الحديث

من بين التعريفات المعاصرة للمنهج ما يدلّ على أنّه الطريقة التي تُنظّم النشاط البيداغوجي بهدف حمل المتعلّم على التعلّم، عن طريق العمل ضمن فريق، أو من خلال تربّص أو عن طريق القيام بالبحوث دون ترك أي مجال للعشوائية فيصبح المنهج الطريقَ المعبّدَ لتفدي الخلط: «والمنهاج يلغي النزوة والارتجال والمغامرة».[36] وهو أيضاً «المقرّر الدراسي الذي ينبغي أن يؤدّي إلى الحصول على درجة علمية، أو هو مجموعة من المقرّرات أو المواد الدراسية التي تلزم للتخرّج، أو الحصول على درجة علمية في ميدان رئيس من ميادين الدراسة...أو أنّه مجموع الخبرات التي يكتسبها المتعلّم تحت توجيه المدرسة».[37]

فهل يجوز لأمّة في ذيل الأمم من حيث التطوّر، تطمح إلى غد مشرق في التنمية واستعادة أمجادها، أن تبقى حبيسة نوع من المناهج البدائية لنهاية القرن التاسع عشر، التي لم تعد قادرة على بناء الفرد المعاصر؟ مع العلم أنّ كوكبة الباحثين منذ مطلع القرن العشرين قد طوّرت نظرتها للمناهج، فأصبحت تعرّفها كالآتي على أنّها الرؤية التي تقوم على أساس المعرفة وتجعلها بؤرة الاهتمام، المعرفة فيها حوصلة التراث الثقافي الإنساني.

أ- العناصر المكوّنة للمنهاج التربوي

يستقيم فهمنا على ضوء ما سبق، أنّ المنهج التربوي هو مجموعة من العناصر، نحن في حاجة إلى تحديدها، للوقوف على ما يتأثّر منها سلباً أو إيجاباً بالمناهج التربوية الجديدة المؤدلجة التي تروج اليوم بين الأمم، وتسعى بعض الدوائر المحلّية والدولية إلى فرضها بالقوّة من داخل الكواليس التي لا يُدعى إليها سوى بعض الحاملين للأيديولوجيات المتشرّبة لكلّ ما له علاقة بالعولمة من المنظور الغربي الأمريكي، أو بالأحرى تلك المناهج الموحّدة التي يسعى في تحديد طبيعتها المجتمع الدولي منذ العشرية الأولى للقرن الحالي، كما تشير إلى ذلك، وبكلّ شفافية، الوثيقة الموسومة "تحالف الحضارات". ولنا أن نجد السبيل الأمثل للتكييف المناهج، في إدراك منّا لجدّية القضية، وتحسّباً لكلّ التزام يحرج السياسات الوطنية أمام المجتمع الدولي، بما ينعكس على المناهج من تغيير، ولا بدّ أن نكون واعين بآثاره قبل الشروع في قبوله. ويمكن أن نحصر غالبية العناصر التي تدخل في تكوين المنهاج التربوي، بأنّها جملة لا تختلف حولها مجموعة التعريفات الصادرة من هنا وهناك.

ب– الأهداف التربوية

تعدّ الأهداف التربوية قضية من القضايا الرئيسة التي شغلت العلماء والمفكّرين، وانطلقت الأبحاث في إنشاء علم يشغل حيّزاً مستقلاً منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، في الدول الغربية والتي كانت تشهد تطوّراً على كلّ الأصعدة، وبخاصّة في بعض الميادين التي أسهمت إسهاماً كبيراً في تطوير علم التربية، كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية ذات الصلة بالتربية والتعليم. وامتدّ هذا التطور إلى بقية البلدان، بما في ذلك العالم المتخلّف والمستعمرات الغربية في الدول العربية وبقية أجزاء العالم. وممّا جاء بهذا الصدد في المدوّنات التربوية: «يشكّل علم التربية المحور الأساسي منذ نهاية القرن التاسع عشر، في الدراسات التاريخية والفلسفية والنفسية والاجتماعية...ومهّدت هذه الفروع لظهور علوم التربية وتبلورها في فئة متميّزة عن غيرها...».[38] وبدون تمييز بين المجتمعات، بمختلف الثقافات، أخذت الأمم بهذا العلم كوسيلة لترقية المجتمع والفرد، والانتقال بهما إلى الأفضل. واستمرّ هذا الاهتمام بالتربية، توازياً مع التطوّر العلمي، ورغبة في تحصيل النتائج التي تتجسّد على شكل فائدة تعمّ المجتمع والفرد على حدّ سواء في صناعة ذلك الإنسان السوي والمتّزن، كما أنّها تساعد المعلّم والمتعلّم على تنشيط العملية التربوية داخل المؤسّسات التعليمية، ونقول في هذا الشأن: «تحرص التربية الحديثة على تحقيق التوازن في بناء شخصية الطفل وتستهدف كلّ أبعاده الشخصية، الجسمية والحركية والذهنية–المعرفية والوجدانية–

الاجتماعية أو كلّ الأبعاد مجتمعة...وقد تمارس التربية بشكل غير مباشر ولا تُعرَف آثارها إلاّ من خلال البحث وربطها بالتجلّيات السلوكية للمتعلّم...».[39]

تبعاً لذلك، أصبح لزاماً علينا الاعتراف بهذه النتائج الإيجابية التي أفادت كثيراً المجتمعات الغربية، وأنّ مواكبتنا للتطوّر الحضاري ضرورة ملحّة، كي لا نبقى غرباء في هذا العالم، والعالم اليوم قرية لا تتّسع لغريب، كما يجب أن نعلم أنّ مواكبة للتطوّر تستلزم ربط نظم التعليم والمناهج التعليمية، بالحركة التي تعرفها هذه الميادين عند من سبقنا إليها، ولا بدّ لنا من اكتساب الخبرات الضرورية لذلك، وتنشئة الأجيال عليها، مع مراعاة خصوصيات **أدبنا** وشخصيتنا الثقافية والحضارية، وهذا من غير شكّ سوف يسهم إسهاماً كثيراً في فكّ عزلتنا عن بقية العالم.

ت– إستراتيجية التعليم

يقول "Renald Legendre" عن الإستراتيجية التعليمية أنّها: «مجموعة من الطرائق المنظّمة بانسجام طبقاً لمبادئ»،[40] تتشكّل من طرق مختلفة للقيام بالأشياء، وأساليب متنوّعة بالإمكان أن تشكّل نوعاً من التعليم ينسجم مع هذه التسمية، وهذه لا خلاف حولها يذكر.

ث– الوسيلة التعليمية

هي الوسيط المستعمل للاستعانة به ضمن منهاج التعليم، ومن الأمثلة على ذلك، الوسائط السمعية البصرية، وتقنيات المعلومة والاتصال، والبرمجيات وتطبيقات الإعلام الآلي، ومختلف الوثائق، المكتوبة والإلكترونية، المستعملة في جعل منهاج التعليم أكثر فعالية، وكلّ هذه الأشياء متّفق عليها، ولا يمكن أن تكون موضع خلاف في المنظومة التربية مهما كانت الأوساط التي جُعِلت لها أو طُبّقت فيها. يبقى الخلاف والحساسية خارجَينِ عن هذه الدائرة.

خامساً: الواحد من الكثرة

إنّ دستور أمريكا الشمالية لعام 1778 يقوم أساساً على فكرة "واحد من الكثرة"[41]، وكذلك مشروع دستور أوربا الحالية، والذي انبثق عن معاهدة وُقّعت في روما في 2004، والتوافق حول فكرة أوربا "موحّدة في تنوّع" الضامن لحماية تراث أوربّا الثقافي وتحسينه، المتضمّن احترام التنوّع الثقافي واللغوي الأوربّي، وتتضمّن عدّة موادّ من هذا الدستور أنّه: «سيسهم الاتحاد في ازدهار ثقافات الدول الأعضاء، كما يحترم تنوعها الوطني والإقليمي وفي الوقت نفسه يضع التراث الثقافي المشترك في الصدارة».[42] ولقد حطّمت وسائل الاتصال لهذا العصر كلّ الحواجز والحدود بين

الشعوب والثقافات، وأدّى ذلك إلى ظهور مفاهيم جديدة للتقارب بين الثقافات ومحاولة صهرها في ثقافة موحّدة ومتعدّدة "تحترم الفوارق"، حيث تولّت هذه الفكرة "ماري لويز" و«التي أثارت منذ أكثر من عشرين سنة موضوع مقارنة أدبية لا تتضمّن مقارنة أفقية فحسب "الحالة A" و"الحالة B"، بل وشاقولية أيضاً "تربط بين العالمي والمحلّي"».[43]

لا بدّ إذن من التوافق حول أنّ العولمة هي بناء التكامل لسكّان المعمورة، لجعل الشعوب تُحسّ ببعد جديد للمواطنة تحت عنوان "المواطنة العالمية" والانتماء إلى ثقافة عالمية موحّدة يتعرّف بداخلها كلّ على نفسه، عبر الأشكال المختلفة للأدب التي مهّدت للعولمة.

1- الرومانسية

إنّ أصل كلمة romantism يحيل إلى كلمة رومان "Roman"، وهي مرادف، في الفرنسية القديمة، "للغة المبتذلة"، في مقابل "اللغة النبيلة"، اللاتينية. وابتداءً من القرن الثاني عشر حدث انزياح في المعنى، واقتصار مصطلح "Roman" للدلالة على الروايات المؤلفة في "اللغة المبتذلة"،[44] إلاّ أنّ هذه اللغة المبتذلة هي التي ستصبح، بعد ثورة ثقافية، اللغة السائدة وهي ليست سوى اللغة الفرنسية.

إنّ لهذه الكلمة مدلولاً مغايراً، لعلّ هذا المدلول هو أوّل ما يتّفق مع مبادئ أدب العولمة في التجديد لأنّ معتنقي الرومانسية هم أقرب إلى مرجعيات العولمة، ذلك بأنّ الرومانسية كانت بمثابة ثورة على الأفكار البالية، تبنّت التعبير عن الوجدان، وهي ثورة على الكلاسيكية لفك الطوق عن الأدب من مكبّلات الكلاسيكية في توجيه المشاعر الإنسانية ودرعها عن الخروج من دائرة التفكير الكنسي؛ هذا هو الأدب الرومانسي كما عرّفه Friedrich Von Shlegel والذي يتبنّى علاقة التضادّ بين الرومانسية والكلاسيكية: «لقد اقترنت كلمة "رومانسي" (Romantique) بمعناها الصحيح: يعني كلّ قوّة عصرية معارضة للتقاليد التي تجسّدها "الكلاسيكية" على المنوال نفسه، ورفضاً لما تمثّله العصور القديمة اليونانية والرومانية، تؤكد الرومانسية على أنّها تيار حديث ووطني يستمد قوته في التاريخ. وهذا يفسّر الدور السياسي الذي تؤدّيه هذه الحركة في البلدان التي تسعى إلى وحدتها، خاصة في إيطاليا».[45]

2- الأدب المقارن والرومانسية والكنيسة

تعدّ الرومانسية ثورة على قيم الكنيسة الكلاسيكية والدينية والأخلاقية التي مورست على التقاليد الأدبية في أوربا إلى غاية القرن الثامن عشر، ولم يقتصر وجودها على التمرّد على الكنيسة، لكنّها مهّدت لظهور تيارات فكرية لا تقلّ عنها خروجاً على تلك التقاليد، وقد قيل: «الاتجاه الأول "الحركة الرومانتيكية": فقد يسرت للإنسان الحصول على حقوقه، ومهدت للثورات وعاصرتها. كما أنّها مهدت لجميع المذاهب الأدبية الحديثة وساعدت الآداب على الاتصال فيما بينها، فمهدت لظهور الدّراسات المقارنة»،[46] وإنّها، وبعبارة أخرى: «ردّ فعل في وجه النزعة الكلاسيكية المتمسكة بقواعد الأدب القديم والقيم الأخلاقية الصارمة فتحررت الرومانسية من تلك القواعد».[47]

3- الثقافة الوطنية والأدب

يشير مفهوم "الثقافة الوطنية" إلى التصدّي لكلّ ما من شأنه أن يطال "الهوية الوطنية" من آثار سلبية مهما كانت مصادرها كالغزو الفكري والأفكار المهيمنة على العالم، التي تهدف إلى فرض نمط أدبي واحد تكون المرجعية فيه لثقافة الدول المهيمنة على المعمورة. وقد يكون هذا أحد المظاهر السلبية لفكرة "العولمة"، إذ يمكن اعتبارها مجرّد استمرار لمحاولات طمس الهوية الثقافية للشعوب "الأقلّ شأناً". وقد يمثّل هذا دعامة فكرية وأدبية للتحرّكات السياسية والعسكرية والاقتصادية، والتي تعتمدها العولمة اليوم لإحكام سيطرتها على مستوى القارّات الخمس وكلّ ما بداخل الخلاف الجوّي. ولقد دخل مفهوم الثقافة الوطنية ليعبّر عن دفع ثقافة المستعمر، ودفع الآثار السلبية التي خلّفها في عقبه، واستمرّ في تغذيتها بشتّى الوسائل المتاحة، من بينها عصرنة الدراسات الأدبية – غير البريئة – بفرض الإفرازات السلبية للحداثة. ولقد كان لانتشار فكرة "الانعكاسات السلبية للعولمة" ردّة فعل قوية من قِبل المؤسّسات العلمية والثقافية في العالم الإسلامي أثمرت بانتشار الحس الأدبي القومي عند الكثير من رجالات الأدب، وأصبحت صمّام أمان، لا يمرّ منه إلاّ ما كان له الأثر الإيجابي على الثقافة والهوية الوطنية، على الرغم من وقوف الكثير من الأدباء، من بني جلدتنا على الضفّة المقابلة، يدعمون فكرة هدم التراث "القديم" المتمثّل في كلّ ما يمتّ بصلة إلى العربية والإسلام، فكثر الحديث عند الأدباء عن التأكيد على إحاطة الأعمال الأدبية بألوان من الإبداع الفنّي وربطه بتراث وتاريخ الأمّة، يهدف إلى الحفاظ على الهوية والثقافة الوطنية.

وزاد الاهتمام الإبداعي والنقدي والأكاديمي برصد مظاهر حضور التراث والتاريخ في الإبداع العربي المعاصر وتجلى ذلك في كثرة المقالات الصحفية والأبحاث والدراسات والرسائل التي ترصد وتحلل تجليات العناصر التراثية في ألوان الإبداع شعراً ونثراً.

4- الأخلاق العالمية والأدب المقارن

من بين النقائص التي تُسجّل في المنهج التربوي للمرحلة الثانوية، غياب النصوص المترجمة، وهي التي بإمكانها المشاركة في ربط الصلة مع العالم الخارجي، والتوظيف الأصلح لمادّة الأدب، خاصّة الأدب المقارن في مهمّةَ البحث في تشكيل المعيار الذي يُحتكَم إليه في الانتماء إلى "المحلّية" أو إلى "العالمية" على أسس قويّة، كما يعتقد هانزر، ويسوق ذلك في العبارة: «تتضمّن العالمية بمعنى أدقّ موقفاً نحو تعايش الثقافات في التجربة الفردية...وهو موقف فكري وجمالي عن الانفتاح نحو تجارب ثقافية مختلفة».[48] ويرى البعض أنّ من مهامّ الأدب المقارن: «دراسة الخصائص العامّة للظاهرة الأدبية والاتصال الأدبي. ويبدو أنّ الآداب العربية المختلفة توفّر مادّة اختبار ممتازة للبحث في الأعراف العامّة التي تجمع سوية تلك التقاليد الأدبية، وكذلك الأعراف التي تباعد بينهما، وبالفعل علينا أن لا نكون مقارنين فحسب وإنّما عموميين أيضاً».[49]

نخلص في الأخير إلى أنْ ليس للأدب المقارن شغل وحيد يكمن في المقارنة، لكن من مهامّه كذلك، دراسة الأدب بشكل عامّ، وإدراك كامل لماهية النصوص الأدبية والطريقة التي تُستغلّ بها هذه النصوص في عملية الاتّصال، وهذا ما يفضي في النهاية إلى الدراسة المقارنة للتأثير والتلقّي، والوقوف على إمكانية التمييز، عن طريق البحث في العلاقة بين مختلف الأنساق الأدبية وما بينها من تداخلات كذلك، أو الدور الذي يؤدّيه القديم والجديد من الممارسات في الأدب.

الخلاصة:

يستحسن النظر إلى المناهج التعليمية للأدب في مراحل ما قبل الجامعي، بالذات في المرحلة الثانوية لإدراج الأدب المقارن والنصوص المترجمة، بما يبعث على الانفتاح على العولمة، تكون نافذة على ما يدور من أفكار في الساحة الأدبية العالمية التي تتطوّر بوتيرة كبيرة، تتطوّراً موازياً للتجديد السريع للوسائل المادّية المبتكرة بشكل يومي، والتي لها التأثير المباشر على أفكار الناس، لأنّ الأدب، كما سبق وأن أشرنا، ذو أثر كبير على الحياة الاجتماعية والنفسية بالنسبة للأفراد والمجتمعات على حدّ سواء.

الهوامش:

[1] تحالف الحضارات، تأليف الفريق الرفيع المستوى، الأمم المتّحدة، نيويورك نوفمبر 2006، ص23.

[2] فوكوياما فرانسيس، دار الحضارة الجديدة، بيروت 1993، ص12-25.

[3] عبد الكريم بن صالح بن حميد، العولمة وآليات تطوير المناهج، جامعة الملك سعود، أفريل 2004.

[4] محمد حجازي، محاضرات في الأدب المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان 2016، ص28.

[5] البروفيسورا شميم بلاك (حوار مع)، إعداد وترجمة: لطيفة الديلمي، http://thaqafat.com/2016/08/62023

[6] معلّقة زهير بن أبي سلمى.

[7] جون بيار وارنيي، عولمة الثقافة وأسئلة الديمقراطية، ص5.

[8] سورة طه، الآية 97.

[9] صامويل هنتنجتون، صراع الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، ط 2، 1999، ص11.

[10] مناهج التعليم في ضوء العولمة، https://sites.google.com/site/socioalger1/lm-alajtma/mwady-amte/mnahj-altlym-fy-dw-alwlmte

[11] صحيح البخاري، حديث رقم 5397، ص2164.

[12] يقصد بالفريق الرفيع المستوى، مجموعة من الباحثين المكلّفين من قبل الأمم المتّحدة لدراسة الظاهرة.

[13] الفريق الرفيع المستوى، الأمم المتّحدة، ص3.

[14] المرجع نفسه، ص8.

[15] المرجع نفسه.

[16] واسيني لعرج في حديث إلى وكالة الأنباء الجزائرية. أنظر الرابط: https://www.djazairess.com/aps/269990

[17] جون بيار وارنيي، مرجع سابق، ص5.

[18] في سنن الترميذي وابن ماجه.

[19] الفريق الرفيع المستوى، الأمم المتّحدة، مرجع سابق، ص23.

[20] رواه أبو داود تحت رقم 4291، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" تحت رقم 599.

[21] جاسر عودة، مقاصد الشريعة وتجديد الفقه الإسلامي المعاصر: رؤية منظومية كلية، منشور مجلة المسلم المعاصر، العدد 151، لبنان 2014.

[22] Évelyne Hery, L'histoire et les Pédagogies de l'Apprentissage dans l'Enseignement Secondaire du XXe Siècle, *Les Sciences de l'éducation - Pour l'Ère nouvelle* 2009/2, (Vol. 42), p. 101-117.

[23] المرجع نفسه، ص5.

[24] FERRIÈRE A. L'enseignement de l'Histoire. *Revue de synthèse*, 1924, n° 38, pp. 93-106.

[25] المرجع نفسه.

[26] نافذة على التربية، العدد 09، وزارة التربية الوطنية، ص03، الجزائر ديسمبر 1998.

[27] الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء 2، ص144.

[28] د. غازي مفلح (جامعة أمّ القرى)، مفهوم المنهج، مقال على الرابط
https://faculty.mu.edu.sa/download.php?fid=167575

[29] Gabriel Compayré, l'Education dans la Grèce antique, Encyclopédie de l'Agora, http://agora.qc.ca/documents/grece_antique--leducation_dans_la_grece_antique_par_gabriel_compayre/

[30] رواه الترميذي وصحّحه الألباني.

[31] صحيح البخاري.

[32] المائدة، آية 48.

[33] عبد الله بن المبارك، كتاب الزهد والرقائق، دار الكتب العلمية، ط2 2004، ص454.

[34] الطبري، المجلّد العاشر، ص388.

[35] سنن أبي داوود.

[36] Renald LEGENDRE, Dictionnaire de l'éducation, Larousse, Paris – Montréal, 1988, p. 369.

[37] د. يسري مصطفى السيد، مفهوم المنهج وعناصره، (ضمن مقال على الرابط)
http://www.khayma.com/yousry/curreculum%20for%20primary%20school%20lect%20(3)%202001-2002.htm

[38] حلّومة بوسعدة، علم التربية، مدوّنة التربية والتعليم، ص13، جويلية 2012.

[39] المرجع نفسه، ص04.

[40] المرجع نفسه، ص13.

[41] سيزر دمنغيز، مرجع سابق، ص5.

[42] المرجع نفسه، ص5.

[43] المرجع نفسه، ص224.

[44] Larousse encyclopédique, Etymologie du mot ‘‘Roman’’.

[45] المرجع نفسه

[46] رامي فواز أحمد، النّقد الحديث والأدب المقارن، ص 113.

[47] الأدب المقارن، المفهوم والنشأة والتطوّر،
https://www.google.fr/search?ei=UH7aWtvsIcfyUt6lpZgI&q

[48] المرجع نفسه، ص225،
.https://www.google.fr/search?ei=UH7aWtvsIcfyUt6lpZgI&q

[49] دوي فوكيما، الأدب المقارن: موقع حقله المعرفي، ص45.